

أدبيات الفقهاء المغاربة في عصر الموحدين

أ. عبد الجليل منصوري
جامعة عمار ثليجي بالأغواط - الجزائر

توطئة

إن الناظر في أدب الفقهاء قد يتبادر إلى ذهنه أول وهلة أنه إنما ينظر في أدب لا يرقى إلى مصاف الإبداع الحقيقي، لأن أهله قد اشتغلوا بما يليهم قرائهم عن استحضار كل ما من شأنه أن يوصف بالجمال أو الإدهاش، إذ كان ما اشتغلوا به مانعا لهم عن الإجادة فيما سواه.

ولعلي أقف على ما رواه ابن خلدون¹ عن أبي العباس بن شعيب وكان بصيرا باللسان العربي أنه أنشد شعرا قال فيه صاحبه:

لم أدر حين وقفت بالأطلال ما الفرق بين جديدها والبالى

فقال على البديهة: هذا شعر فقيه، لقول الشاعر: ما الفرق؟

ومن الوقوف على هذه الرواية يظهر أن الأدباء كانوا يستضعفون شعر الفقهاء لغلبة ألفاظ فهم عليه، وكذلك "ألفاظ أصحاب كل حرفة تغلب على أشعارهم"²

فالشأن إذن ليس في ألفاظ الشاعر، ومن أين يستدعيها؟ أمن حرفته؟ أم من شعوره؟ وإنما الشأن في شاعرية ما ينتجه.

ولو كانت ألفاظ الفقهاء تزري بالشعر والأدب وتضع من شأنهما لكانت كذلك تصنع مع الأدباء إذا هم وظفوها في أشعارهم، ولقد استعملوها كثيرا جدا ودواوينهم خير شاهد على

ذلك، كديوان المتنبي، والبحري، وأبي تمام، ولا يمكن أن تجد ناقدا واحدا يقدر في شاعرية أحد هؤلاء الثلاثة لأنه مال إلى ألفاظ الفقهاء وجعل شيئا منها في شعره.

كما لا يمكن للناقد المنصف أن يصدر أحكاما على جماعة عريضة وعلى أدبها بمجرد النظر إلى ألفاظ حرفتها وصنعتها، تلك الأحكام قد تسهم إلى حد ما في إلغاء تلك الجماعة وإلغاء أدبها الذي قد يفوق أدب الأدباء أنفسهم.

نبذة عن أدب الفقهاء قبل عصر الموحدين

قامت دولة الموحدين قيامها الفعلي بعد مبايعة رجالها لعبد المؤمن بن علي الكومي سنة ست وعشرين وخمسائة للهجرة³، ثم تأسست سنة إحدى وأربعين وخمسائة للهجرة، واستمرت تحكم المغرب والأندلس إلى آخر حكمها أبي دبوس الواثق بالله سنة ثمان وستين وستائة للهجرة⁴. وسأذكر الآن فقهاء اثنين عاشا قبل قيام هذه الدولة، أحدهما من المشاركة المتقدمين، وثانيهما من المغاربة المتأخرين.

عروة بن أذينة الليثي المدني (130 هـ)

قال عنه صاحب فوات الوفيات: "... الشاعر الحجازي المشهور، سمع ابن عمر، وروى عنه مالك في الموطأ، وكان من فحول الشعراء."⁵

وفيما ذكره المترجم شهادتان: إحداها على علو كعبه في الفقه والرواية إذ روى عن ابن عمر رضي الله عنهما، وروى عنه إمام دار الهجرة رحمه الله، وثانيتهما على شاعريته ورقة حاشيته وفحولته، وشعره شاهد على ذلك، ومنه قوله:

خلقت هواك كما خلقت هوى لها
بيدي لصاحبه الصباية كلها
لو كان تحت فراشما لأقلها
يوما وقد ضحيت اذن لأظلهما
شفع الضمير إلى الفؤاد فسلها
بلباقية فأذفها وأجلها
ماكان أكثرها لنا وأقلها
من أجل رقيتها! فقلت لعلها⁶

إن التي زعمت فؤادك ملها
فبك الذي زعمت بها وكلاكما
ويبيت بين جوانحي حب لها
ولعمرها لو كان حبك فوقها
وإذا وجدت لها وسأوس سلوة
بيضاء باكرها النعيم فصاغا
منعت تحيتها فقلت لصاحبي
فدنا فقال: لعلها معذورة

فهذه القطعة الشعرية لا يخفى جمالها، فهي تنضح رقة وعذوبة، ولو أنها اتفقت لشاعر صنعتها الشعر فقط لفرح بها ولعدها من مناقبه.

كما لا يمكن لأحد من النقاد الطعن في شاعريتها لأنها صدرت عن فقيه راوية لحديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن شعره العذب كذلك ما رواه ابن عبد ربه في العقد:

إذا وجدت أوار الحب في كبدي غدوت نحو سقاء الماء أبترد
هبني بردت ببرد الماء ظاهره فمن لنار على الأحشاء تتقد⁷

وقد علق عليها بما يدل على إعجابه الشديد بها وبصاحبها.

علي الحصري القيرواني (488)

فقيه ومقرئ مغربي كانت حياته كذلك قبل قيام دولة الموحدين، لم يمنعه اشتغاله بالفقه أن يبدع أدبا راقيا جدا يصنفه في الشعراء كما قد صنفه فقهه في الفقهاء المقدمين، وله قصيدة سارت مسير الشمس في الآفاق، يكاد لا يخلو صدر دارس للأدب من بيت من أبياتها لرقتها وعذوبتها، وما زال الشعراء قديما وحديثا يعارضونها وينسجون على منوالها، وأذكر منها:

يا ليل الصَّبِّ متى غَدُّه أقيامُ السَّاعةِ مؤعِدُّه
رَقَدَ السُّمَّارُ فَأَرْقَهُه أسَفٌ لِلْبَيْنِ يُرَدِّدُهُ
فَبَكَاهُ النَّجْمُ وَرَقَّ لَهُ مَمَّا يَزْعَاهُ وَيَرْصَدُهُ
كَلَفَتْ بَعْزَالِ ذِي هَيْفٍ خَوْفُ الْوَاشِيِّنَ يُشَرِّدُهُ
نَصَبْتُ عَيْنَايَ لَهُ شَرْكَأً فِي النَّوْمِ فَعَزَّ تَصَيِّدُهُ
وَكَفَى عَجَبًا أَنِّي قَنَصُ لِلسَّرِبِ سَبَابِي أَغْيَدُهُ
صَتَمْتُ لِلْفَتْنَةِ مُنْتَصِبٌ أَهْـبَاهُ وَلَا أَتَعَبِدُهُ
صَاحُ، وَالْحَمْرُ جَنَى قَمِهِ سَكْرَانُ اللَّخْظِ مُعْرِبِدُهُ
يَنْضَوُ مِنْ مُقْلَتِهِ سَيْفًا وَكَأَنَّ نُعَاسًا يُغْمِدُهُ
فَيُرِيْقُ دَمَ الْعُشْبَاقِ بِهِ وَالْوَيْلُ لِمَنْ يَنْقُأُهُ
كَلا، لَا ذَنْبَ لِمَنْ قَتَلْتُ عَيْنَاهُ وَلَمْ تَقْتُلْ يَدَهُ
يَا مَنْ جَحَدْتُ عَيْنَاهُ دَمِي وَعَلَى خَدَّيْهِ تَوَرَّدُهُ
خَدَاكَ قَدْ اعْتَرَفَا بِدَمِي فَعَلَامَ جُفُونِكَ تَجَحَّدُهُ
إِنِّي لِأَعِيذُكَ مِنْ قَتْلِي وَأَظُنُّكَ لَا تَتَّعَمِدُهُ
بِاللَّهِ هَبِ الْمُشْتَاقَ كَرِيًّا عَمَلٌ خِيَالُكَ يُسَدِّدُهُ
مَا ضَرَّكَ لَوْ دَاوَيْتَ ضَنْيَ صَبِّ يَهْـوَاكَ وَتُبْعِدُهُ
لَمْ يُبْقِ هَوَاكَ لَهُ رَمَقًا فَلْيُبْكِكْ عَلَيْهِ عَمُودُهُ

هَلْ مِنْ نَظَرٍ يَتَرَوْدُهُ بِالدَّمْعِ يَفِيضُ مُرَوْدُهُ وَصُرُوفُ الدَّهْرِ تُنْعِدُهُ لِلْوَلَايَةِ أَيْامُ تَنْكَدُهُ لِفُؤَادِي كَيْفَ تَجَاوِدُهُ⁸	وَعَدَا يَقْضِي أَوْ بَعْدَ عَدِ يَا أَهْلَ الشَّرْقِ لَنَا شَرْقُ يَهْوَى الْمُشْتَقُّ لِقَاءَكُمْ مَا أَخْلَى الْوَصْلَ وَأَعْدَبَهُ بِالْبَيْنِ وَبِالْهُجْرَانِ، فَيَا
---	---

وهي قطعة بديعة تنساب في النفس انسيابا عجيبا، لا يمكن القول إنها شعر فقيه بغرض ازدرائها والوضع منها ولولا طولها لأوردتها هنا كاملة، وإنما ذكرت هذين العليين للإشارة إلى أن الفقهاء مذ كانوا وهم أدباء، ولا يزال بعض منهم كذلك إلى يوم الناس هذا.

أدب الفقهاء المغاربة في عصر الموحدين

ليس الغرض من هذه الورقات الترجمة لفقهاء المغرب والأندلس في حقبة ما، وإنما الغرض منها الإشارة إلى مواطن الجمال في أدب الفقهاء المغاربة، وبذلك يفند الحكم القائل: شعر فقيه، والمراد به الركافة والضعف.

ومن الفقهاء الذين ذاع صيتهم واشتهروا في المغرب والمشرق:

القاضي عياض اليحصبي (544 هـ)

قال عنه ابن خلكان: "... كان إمام وقته في الحديث وعلومه والنحو واللغة وكلام العرب".⁹ وله التصانيف الكثيرة والمفيدة، وهذا لم يمنعه أن يشارك في الأدب مشاركة صالحة، ومن بديع شعره:

لكنه للضني والسقم أوصي بي أخا هوى وتباريح وأوصاب كأنني راصد للنجم أو صابي إلا جنى حنظل في الطعم أو صاب¹⁰	يا من تحمل عني غير مكترث تركنتني مستهام القلب ذا حرق أراقب النجم في جنح الدجى سهرا وما وجدت لذيق النوم بعدكم
--	---

ونلاحظ في هذه الأبيات رقة الشاعر ونفثة المصدور، كما نلاحظ اهتمامه بالصناعة اللفظية كما كان أبو تمام يصنع تماما مع بديع شعره، فبنى هذه القطعة الشعرية على الجناس التام

الذي يلفت انتباه السامع، كما يضيف لموسيقى الموسيقى اللفظ فيجعل السامع في إيقاعات متعددة لا يدري كيف يخلص منها.

وله قطعة أخرى صنع فيها كما صنع بالتي ذكرت أنفا وهي قوله:

الله يعلم أنني منذ لم أركم كطائر خانه ريش الجناحين
فلو قدرت ركبت البحر نحوكم فإن بعدكم عني جنى حيني¹¹

ومن بديع شعره كذلك قوله يصف خامات زرع بينها شقائق النعمان هبت عليه ريح، فراحت شقائق النعمان تظهر من خلاله:

انظر إلى الزرع وخاماته تحكي وقد ماست أمام الرياح
كتبيبة خضراء مهزومة شقائق النعمان فيها جراح¹²

وفي وصف هذا الفقيه للصورة الطبيعية الماثلة أمامه تذكير بوصف الشعراء الفحول، كوصف المتنبي لشعب بوان، بل أقول إن الصورة عند فقيها هذا أجمل لأنه يصف لحظة يسيرة قد يرتبك بسبب قصرها الإحساس فلا يطاوع صاحبه.

أبو بكر ابن العربي المعافري (543 هـ)

" هو الإمام العالم القاضي الشهير نقر العرب أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي".¹³، هذا الفقيه الذي عاش حتى قامت دولة الموحدين وتوفي في فاس بين أكافها لم يمنعه فقهه من إبداع ما لا يصدر إلا عن شاعر فحل وأديب مجيد، ومن ذلك ما قاله على البديهة لما داعبه أحد الأمراء بالرمح:

يهز علي الرمح ظبي مهفهف لعبوب بألباب البرية عابث
ولو كان رمحا واحدا لاتقيته ولكنه رمح وثنان وثالث¹⁴

سرعة بديهة وحضور ذهن وتوقد حس وشدة عارضة، كما أن بيته الثاني قد سار في الناس مسير الأمثال.

وقال أيضا يصف غلاما قد لبس ثيابا لا تليق به:

وأنا شاجيا قد عسا
جل سوء لا يشين الفرسا
لا يبالي حسن ما لبسا¹⁵

لبس الصوف لكي أنكره
قلت إليه قد عرفناك وذا
كل شيء أنت فيه حسن

ومن بديع نظمه ولطيف عبارته قوله:

فأهلا بها وبأنيبها
أتبكي بعين تراني بها؟
أمرت الدموع بتأنيبها¹⁶

أتنتني تؤنني بالبكا
تقول وفي قولها حشمة
فقلت إذا استحسننت غيركم

أبو الخطاب ابن دحية الكلبي (633 هـ)

من فقهاء دولة الموحدين ومن رواة الحديث النبوي فيها، كان عالما فاضلا مطلعاً على العربية متذوقاً للشعر العربي، ذكره محمد المنوني من جملة المفسرين المغاربة في كتابه: حضارة الموحدين¹⁷

ويشهد له بأديبته الفائقة سفره الرائع: المطرب في أشعار أهل المغرب، وقد جود فيه إلى حد بعيد لا يمكن معه الوقوف على شيء منه وترك شيء آخر، إذ لو أراد المتحدث عن براعته فيه الاستشهاد بجماله لأتى على نصف الكتاب.

ومما ينسب إليه من الشعر قصيدة بقي مطلعها فقط وهو قوله:

لولا الوشاة وهـم أعداؤنا ما وهـموا¹⁸

ابن زرقون (586 هـ)

فقيه مغربي آخر، ذكره محمد المنوني في جملة الفقهاء المالكية¹⁹، ومن جميل شعره قطعة نقلها عنه أبو الخطاب الكلبي، وهي قوله:

فجری دمعہ ولج النحیب
بتجن، وودنا مشبوب
ر قریب وإذ یقول الرقیب
یار والروض زاهر مهضوب
ق علینا وظاهرتهالقلوب

ذكر العهد والديار غريب
إذ صفاء الوداد غير مشوب
وإذ الدهر دهرنا وإذا الدا
وقيان الأوتار تسدها الأط
وشاحي معاصم لوت الشو

وعلوها مني رفيق طبيب حبذا الكأس حبذا المشروب نافذ فيه والفعال ضروب حاذق الطعن فالحمى منهوب ء مقالي لقد تعف الغيوب لا سواها وللذنوب ذنوب²⁰ وسواء صدوقه والكذب	وفراشي بطن وصدر ونهد واللما والرضاب كأسى وخمري وحمى الأزر لي مباح وحكمي وإذا ما الحمى أغار عليه أسأل الله عفوه فلئن سا قد ينال الفتى الصغائر طرفا وأخو الشعر لا جناح عليه
--	--

قطعة تسيل عذوبة ورقة، يظن قارئها أنها لعمر بن أبي ربيعة أو لمن شاكله امن شعراء الغزل المطبوعين، أظهر في أولها فقيها كل ما يكون من شاعر غزل، ثم عاد في آخرها واعتذر لنفسه بالذي يكون في الشعر من كذب.

وقال يخاطب امرأة:

وأنت من قوم صدق ظاهري الكرم ونحن في جفوة أفضت إلى سقم وأين منك مقال الله في اللمم أن يستحل وقاك الله سفك دمي²¹	يا نور نفسي حق الضيف مفترض مرت ليال علينا في جواركم إن قلت تبت، فما كانت مفاحشة أو كان نسك فما ذو النسك في سعة
--	---

وهذه قطعة أخرى شاهدة على شاعرية هذا الفقيه وغزله العفيف الطاهر، ولا يمكن لمن قرأها أن يقدح في جمالها وتمكن صاحبها من ناصية الشعر والأدب.

الخلاصة

لا يمكن في هذه الورقات اليسيرة الوقوف على كل الفقهاء الأدباء لدولة الموحدين، إذ عددهم لا يحصر لكثرتهم من جهة، ولندرة الكتب التي تترجم لفقهاء المغرب خاصة دون غيرهم من جهة أخرى.

إلا أن الاستفادة من خلال هذا العرض اليسير أن للفقهاء أدبا يضاھون فيه فحول الشعراء، إذ هم يطرقون جميع أغراض الشعر، لا كما يتوهم بعض الدارسين أنهم لا يتجاوزون

عتبات النصيح والإرشاد، أو نظم العلوم والفنون في منظومات تيسر للطلاب الحفظ والاستحضار.

ومما يستفاد كذلك أن الفقهاء يطرقون كل فنون الشعر حتى الغزل، بل يجيدون فيه أي إجادة، حتى يظن القارئ أن الشعر لغير فقيه لما اعتاد الناس من وقارهم لا لضعف نسجهم وعدم قدرتهم على الإتيان بمثله.

وكذلك بعد الفقهاء عن توظيف مصطلحات فهم أثناء ممارستهم للأدب وأثناء الإفصاح عن مشاعرهم، فهم واعون تماما للمقامات التي هم يتقصدونها مرة بعد مرة، ففي مجالس الدرس لا يبدو منهم ما يشوه وقار المجلس، وفي مجالس الأُنس والتبسط مع الرفاق والأصحاب والأهل يميلون إلى ما تميل إليه النفس وتطلبه ليروحوا عنها.

ومما يستفاد كذلك احتفال بلاد المغرب والأندلس - زمن الموحدين - بالفقهاء الأدباء، فهم فقهاء مالكية أو ظاهرية قد أثروا المكتبة الفقهية بما دونوا في هذا الفن، وهم أدباء بأشعارهم ورسائلهم التي شاركوا بها فكانت خير إضافة لموروثنا الأدبي.

وبهذا ندرك أن للفقهاء أدبا لا يمكن ازدرأؤه ولا احتقاره، إذ قد بلغ الذروة في الجمال، ولعل السبب راجع إلى كونهم يفتحون عيونهم على أعظم كلام فصاحة وبلاغة ونظما، وأعني بذلك كلام الله عز وجل ثم كلام نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، فيحصلون بهما مادة لغوية وأدبية لا تتفق لغيرهم، ثم يضيفون عليها رواية الأشعار وأخبار العرب... فتتألف عندهم الملكة للولوج في أي أمر يريدون لها الولوج فيه.

المصادر والمراجع

- إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ط4، 1983، دار الثقافة، بيروت، لبنان.
- ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، دتج، ط1، 2011، دار ابن حزم، بيروت، لبنان.

- ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح إحسان عباس، ط1، 1994، دار صادر، بيروت، لبنان.
- الذهبي شمس الدين، تاريخ الإسلام، تح بشار عواد معروف، ط1، 2003، دار المغرب الإسلامي.
- السلاوي شهاب الدين، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تح جعفر الناصري ومحمد الناصري، د ط، د ت، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب.
- الصلابي علي محمد محمد، دولة الموحدين، د ط، د ت، دار البيارق، عمان الأردن.
- العاملي بهاء الدين، الكشكول، تح محمد عبد الكريم التمري، ط1، 1998، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، تح أحمد أمين وآخران، د ط، د ت، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- عروة بن أذينة، شعر عروة بن أذينة، جمعه يحيى الجبوري، ط2، 1981، دار القلم، الكويت، الكويت.
- الكتبي ابن شاكر، فوات الوفيات، تح إحسان عباس، ط1، 1974، دار صادر، بيروت، لبنان.
- الكلبي أبو الخطاب ابن دحية، المطرب من أشعار أهل المغرب، تح إبراهيم الأبيار، وآخران، د ط، 1955 دار العلم، بيروت، لبنان.
- المقرئ شهاب الدين التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح إحسان عباس، ط1، 1997، دار صادر، بيروت، لبنان.
- المنوني محمد، حضارة الموحدين، د ط، د ت، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب.

الهوامش:

- ¹ ينظر ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، د تح، ط 1، 2011، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، 482/1
- ² إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ط 4، 1983، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 615
- ³ ينظر علي محمد محمد الصلابي، دولة الموحدين، د ط، د ت، دار البيارق، عمان الأردن، 98، وشهاب الدين السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تح جعفر الناصري ومحمد الناصري، د ط، د ت، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 102/2
- ⁴ ينظر دولة المحدثين 234
- ⁵ الكتبي ابن شاكر، فوات الوفيات، تح إحسان عباس، ط 1، 1974، دار صادر، بيروت، لبنان، 451/2
- ⁶ شعر عروة بن أذينة، جمعه يحيى الجبوري، ط 2، 1981، دار القلم، الكويت، 364-360.
- ⁷ ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، تح أحمد أمين وآخرون، د ط، د ت، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 274/5
- ⁸ العاملي بهاء الدين، الكشكول، تح محمد عبد الكريم القمري، ط 1، 1998، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 211/1، بتصرف.
- ⁹ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح إحسان عباس، ط 1، 1994، دار صادر، بيروت، لبنان، 483/3.
- ¹⁰ أبو الخطاب ابن دحية الكلبي، المطرب من أشعار أهل المغرب، تح إبراهيم الأبيار، وآخرون، د ط، 1955 دار العلم، بيروت، لبنان 87.
- ¹¹ المصدر السابق 88
- ¹² المصدر نفسه 87.
- ¹³ شهاب الدين المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح إحسان عباس، ط 1، 1997، دار صادر، بيروت، لبنان، 26/2.
- ¹⁴ المصدر نفسه.
- ¹⁵ المصدر نفسه.
- ¹⁶ المصدر نفسه 30/2
- ¹⁷ محمد المنوني، حضارة الموحدين، د ط، د ت، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، 36.
- ¹⁸ شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام، تح بشار عواد معروف، ط 1، 2003، دار المغرب الإسلامي، 112/14.

¹⁹ ينظر حضارة الموحدين 40.

²⁰ المطرب 220-221.

²¹ المصدر نفسه 221.

